تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده كقوله تعالى : { تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم } وقوله تعالى : { وهو العزيز } أي منيع الجناب { الحكيم } في قدره وشرعه وقوله تعالى : { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب } يعني يهود بني النضير قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد : كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل ا بهم بأسه الذي لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد فأجلاهم النبي صلى ا عليه وسلّم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس ا فما أغنى عنهم من ا شيئا وجاءهم من ا ما لم يكن ببالهم وسيرهم رسول ا صلى ا عليه وسلّم وأجلاهم من المدينة فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام وهي أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال تعالى : { يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار } أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر ا وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الاخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود سفيان حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ورسول ا صلى ا عليه وسلّم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم با لنقاتلنه أو لنخرجنكم أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم فلما بلغ ذلك عبد ا بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي صلى ا عليه وسلّم فلما بلغ ذلك النبي صلى ا عليه وسلّم لقيهم فقال : [لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم] فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء وهو الخلاخل فلما بلغ كتابهم النبي صلى ا عليه وسلّم أيقنت بنو النضير بالغدر فأرسلوا إلى النبي صلى ا عليه وسلّم : اخرج إلينا في ثلاثين رجلا من

أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبرا حتى نلتقي بمكان النصف وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فلما كان الغد غدا عليهم رسول ا صلى ا عليه وسلّم بالكتائب فحصرهم فقال لهم : [إنكم وا لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدونني عليه] فأبوا أن يعطوه عهدا فقاتلهم يومهم ذلك ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها وكان نخل بني النضير لرسول ا صلى ا عليه وسلّم خاصة أعطاه ا إياها وخصه بها فقال تعالى : { وما أفاء ا على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب } يقول بغير قتال فأعطى النبي صلى ا عليه وسلّم أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما وبقي منها صدقة رسول ا صلى ا عليه وسلّم التي في أيدي بني فاطمة ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبا المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلّم وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري فلما كان في أثناء الطريق راجعا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر وكان معهما عهد من رسول ا A وأمان لم يعلم به عمرو فلما رجع أخبر رسول ا A فقال له رسول ا A : [لقد قتلت رجلين لأدينهما] وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد فخرج رسول ا A إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة : ثم خرج رسول ا A إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول ا A عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف فلما أتاهم رسول ا A يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول ا صلى ا تعالى عليه وعلى آله وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحش بن كعب أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول ا A في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي Bهم فأتى رسول ا A الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة .

فلما استلبث النبي A أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال

رأيته داخلا المدينة فأقبل أصحاب رسول ا A حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول ا A بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول ا A بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد ا بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا فقذف ا في قلوبهم الرعب فسألوا رسول ا A أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول ا A فكانت لرسول ا A خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة ـ سماك بن خرشة ـ ذكرا فقرا فأعطاهما رسول ا A قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول ا A قال ليامين : [ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني] فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم فقوله تعالى : { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب } يعني بني النضير { من ديارهم لأول الحشر } قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ هذه الاية { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر } قال لهم رسول ا A [اخرجوا] قالوا : إلى أين ؟ قال : [إلى أرض المحشر] وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن عوف عن الحسن قال : لما أجلى رسول ا A بني النضير قال : [هذا أول الحشر وأنا على الأثر] ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن به .

وقوله تعالى : { ما ظننتم أن يخرجوا } أي في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ولهذا قال تعالى : { وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من ا فأتاهم ا من حيث لم يحتسبوا } أي جاءهم من أمر ا ما لم يكن لهم في بال كما قال تعالى في الاية الأخرى : { قد مكر الذين من قبلهم فأتى ا بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون } .

وقوله تعالى : { وقذف في قلوبهم الرعب } أي الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات ا وسلامه عليه وقوله : { يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين } قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل وكذلك قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال مقاتل بن حيان كان رسول ا A يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال وكان اليهود إذا علوا مكانا أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها يقول ا تعالى : { فاعتبروا يا أولي الأبصار } وقوله : { ولولا أن كتب ا عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا } أي لولا أن كتب ا عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند ا عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك قاله الزهري عن عروة والسدي وابن زيد لأن ا قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الاخرة من العذاب في نار جهنم .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد ا بن صالح كاتب الليث حدثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بني النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول ا A حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح فأجلاهم رسول ا A قبل الشام قال : والجلاء كتب عليهم في آي من التوراة وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول ا A وأنزل ا فيهم { سبح ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من ا فأتاهم ا من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار * ولولا أن كتب ا عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا ا ورسوله ومن يشاق ا فإن ا شديد العقاب * ا قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن ا وليخزي الفاسقين } وقال عكرمة : الجلاء القتل وفي رواية عنه الفناء وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيرا وسقاء فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد ا الحافظ أخبرنا أحمد بن كامل القاضي حدثنا محمد بن سعيد العوفي حدثني أبي عن عمي حدثنا أبي عن جدي عن ابن عباس قال : كان النبي A قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى وروي أيضا من

حديث يعقوب بن محمد الزهري عن إبراهيم بن جعفر عن محمود بن محمد بن مسلمة عن أبيه عن جده عن محمد بن مسلمة أن رسول ا A بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام .

وقوله تعالى : { ولهم في الآخرة عذاب النار } أي حتم لازم لا بد لهم منه وقوله تعالى : { ذلك بأنهم شاقوا ا ورسوله } أي إنما فعل ا بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين لأنهم خالفوا ا ورسوله وكذبوا بما أنزل ا على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد A وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ثم قال : { ومن يشاق ا فإن ا شديد العقاب } وقوله تعالى : { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن ا وليخزي الفاسقين } اللين نوع من التمر وهو جيد قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة قال ابن جرير : هو جميع النخل ونقله عن مجاهد وهو البويرة أيضا وذلك أن رسول ا A لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهابا وإرعابا لقلوبهم فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : فبعث بنو النضير يقولون لرسول ا A إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل ا هذه الاية الكريمة أي ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم وإرغام لأنوفهم .

وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضا عن قطع النخل وقالوا : إنما هي مغانم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه وقد روي نحو هذا مرفوعا فقال النسائي : أخبرنا الحسن بن محمد عن عفان حدثنا حفص بن غياث حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن ا وليخزي الفاسقين } قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم فقال المسلمون : قطعنا بعضا وتركنا بعضا فلنسألن رسول ا A هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل ا { ما قطعتم من لينة } وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا حفص عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن جابر وعن أبي الزبير عن جابر قال : رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي A فقالوا يا رسول ا علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا فأنزل ا D { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن ا } .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أن رسول ا A قطع نخل بني النضير وحرق وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة بنحوه ولفظ البخاري من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن

عمر قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حارب قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي بني ويهود سلام بن ا عبد رهط وهم قينقاع بني كلهم المدينة يهود وأجلى وأسلموا فأمنهم A حارثة وكل يهود بالمدينة ولهما أيضا عن قتيبة عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر أن رسول ا A حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فأنزل ا D فيه { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن ا وليخزي الفاسقين } .

وللبخاري C من رواية جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر Bهما أن رسول ا A حرق نخل بني النضير ولها يقول حسان بن ثابت Bه : .

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير .

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول : .

أدام ا ذلك من صنيع وحرق في نواحيها السعير .

ستعلم أينا منها بنزه وتعلم أي أرضينا نضير .

وكذا رواه البخاري ولم يذكره ابن إسحاق وقال محمد بن إسحاق وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف : .

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور .

وذلك أنهم كفروا برب عظيم أمره أمر كبير .

وقد أوتوا معا فهما وعلما وجاءهمو من ا النذير .

نذير صادق أدى كتابا وآيات مبينة تنير .

فقالوا ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير .

فقال بلى لقد أديت حقا يصدقني به الفهم الخبير .

فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يجز الكفور .

فلما أشربوا غدرا وكفرا وجد بهم عن الحق النفور .

أرى ا النبي برأي صدق وكان ا يحكم لا يجور .

فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير .

فغودر منهمو كعب صريعا فذلت بعد مصرعه النضير .

على الكفين ثم وقد علته بأيدينا مشهرة ذكور .

بأمر محمد إذ دس ليلا إلى كعب أخا كعب يسير .

فما كره فأنزله بمكر ومحمود أخو ثقة جسور .

فتلك بنو النضير بدار سوء أبادهمو بما اجترموا المبير .

غداة أتاهمو في الزحف رهوا رسول ا وهو بهم بصير .

وغسان الحماة موازروه على الأعداء وهو لهم وزير .

فقال السلم ويحكمو فصدوا وخالف أمرهم كذب وزور .

فذاقوا غب أمرهمو وبالا لكل ثلاثة منهم بعير .

وأجلوا عامدين لقينقاع وغودر منهمو نخل ودور .

قال : وكان مما قيل من الأشعار في بني النضير قول ابن القيم العبسي ويقال : قالها قيس بن بحر بن طريف قال ابن هشام الأشجعي : .

أهلي فداء لامرء غير هالك أجلى اليهود بالحسى المزنم .

يقيلون في جمر العضاه وبدلوا أهيضب عودا بالودي المكمم .

فإن يك ظني صادقا بمحمد يروا خيله بين الصلا ويرمرم .

يؤم بها عمرو بن بهثة إنهم عدو وما حي صديق كمجرم .

عليهن أبطال مساعير في الوغى يهزون أطراف الوشيج المقوم .

وكل رقيق الشفرتين مهند تورث من أزمان عاد وجرهم .

فمن مبلغ عني قريشا رسالة فهل بعدهم في المجد من متكرم .

بأن أخاكم فاعلمن محمدا تليد الندى بين الحجون وزمزم .

فدينوا له بالحق تحسم أموركم وتسموا من الدنيا إلى كل معظم .

نبي تلاقته من ا رحمة ولا تسألوه أمر غيب مرجم .

فقد كان في بدر لعمري عبرة لكم يا قريش والقليب الملمم .

غداة أتى في الخزرجية عامدا إليكم مطيعا للعظيم المكرم .

معانا بروح القدس ينكي عدوه رسولا من الرحمن حقا بمعلم .

رسولا من الرحمن يتلو كتابه فلما أنار الحق لم يتلعثم .

أرى أمره يزداد في كل موطن علوا لأمر حمه ا محكم .

وقد أورد ابن إسحاق C ههنا أشعارا كثيرة فيها آداب ومواعظ وحكم وتفاصيل للقصة تركنا باقيها اختصارا واكتفاء بما ذكرناه و الحمد والمنة قال ابن إسحاق : كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال : كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر